المنسي

"المنسيون إخوة العتمة و أبناؤها البررة"

أدرك أيوب أن الوزارة لم تعينه معلمًا هناك و إنما شيئا آخر. ربما جنديا في الحدود. فالمعلمون لا يهربون، ولا يفرون. لا يصرخون، ولا يندمون بخروجهم بـ"الشورط". قام من مقامه، وأخذ حمامه البارد؛ لأن إمكانات تدفئته غير واردة، ثم شرب كأس شاي.

كم هو مشتاق لشرب فنجان قهوة تعصرها بدقة وتفنن نادلته المفضلة صفية. كم هو مشتاق أن يفطر بقطعة من الخبز محشوة بالجبن أو العسل. لكن ذلك لن يحلم به في قرية نائية بزاكورة. عليه أن يشرب الشاي ويعتاد عليه؛ فهو المشروب الوحيد الذي بإمكانه اقتناؤه. اشتاق لعصير من الموز أو التفاح أو الكرز. يا لها من حياة قاسية! كأس شاي وقطعة خبز حافٍ هو إفطار الإنسان الزاكوري. لكن الله أنعم عليهم بواحة من النخيل. ولولاها لقامت مظاهرات و انتفاضات. لكن الحق يقال: "حمدا لله الذي أمن هذا البلد وجعله مطمئنا سخاء رخاء". هكذا يقول الإمام في خطبه المنبرية، وهكذا يردد الناس.

تناول صاحبنا إفطاره، وتوجه تلقاء المدرسة. بعيدة كانت. عليه أن يقطع عشرات الكيلومترات ليصل إليها. وهذه المسافة كلها قفار. لا نبات ينمو فيها، ولا حيوان فيها يتنفس. كثبان وكثبان من الرمل. وفي أحسن الأحوال يمر ببعض الكيلومترات من الحجارة. يستنفد، وهو في الطريق، كمية

الماء التي جلبها. يحاول أن يكون مقتصدا؛ لأن "المبدرين كانوا إخوان الشياطين"، لكن الطقس لا يترك له دقيقة دون أن يشرب. تبدأ معاناته مع الماء. عليه قطع عشرين كيلومترا المتبقية بدون مياه. يقاوم ويقاوم حتى يصل.

يدخل إلى القسم بعد أن يأخذ من تلميذه الذي يقطع المسافة ذاتها قنينة الماء التي اصطحبها. هو لا يستأذنه في ذلك، لكنه يزيلها من يده وبشدة. يشرب الكمية كلها، يعرق جبينه وجسده، تظهر شلالات من العرق تحت إبطيه. يستغرب التلاميذ من حالته! يأمرهم بوضع كتاب التربية الفنية فوق الطاولات، ويشير إليهم بإتمام الرسم الموجود في الصفحة السابعة. يجلس على مكتبه، رجلاه متورمتان، يحس بحبات الرمل داخل عينيه وحلقه وأذنيه وأنفه. يحرك خصلات شعره، يتطاير منها الرمل. يصمت طويلا ويتأمل التلاميذ.

- "يا لقدرتهم التحملية! ما أقدرهم على حمل السلاح والدفاع عن الوطن". قالت نفسه المطمئنة.

عقبت عليها نفسه المطمئنة:

- "وأي وطن سيدافعون عنه؟ هل هو وطنهم الذي يجعلهم يأكلون حبات الرمل، أم الوطن الذي يوشح غيرهم بالأوسمة ؟

تتدخل النفس اللوامة فتقاطعهما: "أنتم تلومون الوطن والوطنيين دائما. ما أكثر نقدكم، وما أقل نقودكم. لا تقدمون أي شيء لهذا الوطن،

ورغم ذلك تسعون إلى كسر سيقانه كلما حاول الوقوف، وتقصون أجنحته كلما حاول الطيران، ويمنعون عنه الماء كلما حاول الغوص. أنتم أيها المنتقدون أشد أعداء الوطن".